التاريخ فى سير أبطاله

أحمد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

ولقد ارتخص هؤلاء الساسة من دعاة المدنية الناقمين على أهل الشرق ما كانوا فيه من تأخر، كل كرامة بغية الوصول إلى أغراضهم، وانقلبت عندهم الأوضاع التى تعارف الناس عليها ، وشهد التاريخ على مسرح السياسة من المضحكات ما يبكى ، ومن المبكيات ما يضحك ؛ فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يُدلون بمدنيتهم ويتطاولون بما فعلوا فى سبيل حرية الإنسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقاً إلى الحرية ، ويعملون على الرقى بوطنهم جادين غير متوانين ، يتعاونون على الحق ويتناسون ما بينهم من دواعى الخلاف ، ويطرحون الأثرة بل ويحرمون على أنفسهم الطيبات حتى يتم لهم ما أرادوا

وذعر هؤلاء الكائدون لمصر الطامعون فيها أن أفاق أهلها على هذا النحو وقد كانوا يظنونهم أمواتاً أو كالأموات ، وهالهم أن يروا فريقاً من هؤلاء الفلاحين يستلبون سلطة الخديو تدريجياً ويحاولون أن يضعوا أنفسهم بحيث تكون الأمة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ، وأدركوا أن هذا البعث الذى أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذى يهتك أسدالهم ويبدد آمالهم ، فماذا نوا يوماً كما بينا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميهم بكل فاحشة، وفى مقدمة هؤلاء جميعاً ذلك الرجل الذى خطا نحو الحرية الخطوة الأولى وصرخ فى وجه الظلم الصرخة الأولى ...

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودى حسنة واحدة . وكيف كانوا يرون لها حسنة ووجودها فى الحكم كان فى ذاته عندهم أقبح السيئات وأكبر الأوزار ، وإنهم ليفترون الكذب عليها وينسبون إليها من السيئات والأخطاء ما ليس لها به من علم

ولكن هذه الوزارة — وتلك عندى أكبر حسناتها — كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون فتمشى إلى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على إنقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكائدين، وعلى تمهدها بضروب الإصلاح فى شتى مرافقها حتى تقوى فتعز على كل باغ ظلوم من خصومها

وما كان فى الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللغات الأوربية، إلا وزير الخارجية مصطفى فهمى باشا؛ ولقد ضم إلى الوزارة ليكون لسانها فى الصلة بالأوربيين ، ولكنه كان من رجال العهد القديم على حد تعبير مؤرخى الثورة الفرنسية، فلم يكن ينظر إلى الوطنيين نظرة الاحترام والتقدير، وإنما كان يرى فيهم فريقاً من الفلاحين يتطلعون إلى ما ليسوا أهلاً له، شأنه فى ذلك شأن الجراكسة وأشباههم من سادات مصر وكبرائها فى ذلك العهد. وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل فى وزارة الخارجية عبئاً يضاف إلى أعباء الوزارة، وذلك أمر لم تفطن إليه إلا بعد فوات الوقت

وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودى وزارة وطنية حقاً تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يملأ أسماع رجالها من نباح وعواء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب فى ٢٦ مارس فقضى بذلك فى العمل نحو ثلاثة أشهر وهى مدة وجيزة كان يشغل بال الأعضاء فيها ترتيب أعمالهم ، ولكن المجلس على الرغم من ذلك قد قسم أعضاءه إلى لجان مختلفة أخذت تتصل بالوزارات وتبحث معها الشؤون العامة التى تهم البلاد ، وجدّ المجلس فى دراسة نصوص المعاهدات والمعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية ورعاياها

وأخذت الوزارات تعد مشروعات الأصلاح المختلفة لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم ؛ فكانت تنظر فيما يتطلبه التعليم وتفكر فى إنشاء مصرف زراعى ينتشل الفلاحين من وهدتهم ، وتعمل على إصلاح المحاكم المختلطة واختصاصاتها كما تناولت قانون الانتخاب وراحت تدرسه لتعد قانوناً جديداً يجعل للمحكومين الرقابة الفعلية على الحاكمين

ولكن حدث أنه كلما تقدمت الوزارة فى خطى أصلاحاتها ازدادت لهجة الصحف الأوروبية فى الغيب عليها والطعن فيها ، واشتدت وطأة الساسة فى نقد أعمالها ، وتزايدت دسائسهم من خولها ، وعلى رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن ، أو على الأصح وُجِّها ، إلى أن مهمتهما فى مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهيداً للتدخل العسكرى

« وقد جد عرابى بنوع خاص فى إصلاح نظارته التى كانت فى منتهى الفوضى والخراب وذلك ليستعد للطوارئ كلها فأظهر همة فائقة فى إصلاح حصون السواحل ونظم احتياطى المدفعية ووزعه على تلك الحصون[1] »

والحقيقة التى لا يمارى فيها إلا المغرضون المبطلون أن البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التى تبرهن على صدقها بالأعمال لا بالأقوال. ولو أنه قدر للوزارة السامية أن تسير على هذا النهج لكان أثرها بعيداً فى تاريخ مصر بل وفى تاريخ القرن التاسع عشر كله ، فلقد كانت المسألة المصرية تعتبر من كبريات المسائل فى ذلك القرن

وليس أدل على وجود الروح الوطنية فى مصر يومئذ من هاتين العبارتين اللتين نوردهما فى هذا المجال ، وأولاهما ما كتبه دى فريسنيه فى كتابه « المسألة المصرية » حيث يقول فى تعليقه على مجلس النواب واختصاصاته : « إن كتاب ذلك العصر اجتهدوا فى أن يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس ، حتى ليخيل إلى الذى يقرأ خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت فى ذلك الوقت تلفيقاً ، وأن وادى النيل لم يكن يحتوى إلا على فلاحين تحنى العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء ، هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا امتهاناً للوطنية المصرية فى عهدهم ؛ وذلك أن نوابنا فى سنة ١٨٤٠ لم يترددوا فى أن يتكلموا فى خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك إذاً وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية فى سنة ١٨٤٠ . ولست فى هذا مبالغاً ، ولا أنا ممن يحبون المبالغة ، ولكن لا ريب فى أنه كانت توجد فى قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن أن تراعى فى حدود معتدلة . تلك حقيقة لا تحتمل جدلاً ؛ غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون فى المصريين غير قوم مدينين . فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم إلا مصلحة واحدة : هى مصلحة الدائنين الأوربيين التى يجب أن تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتبهوا إلى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ، وتدخلهم فى شؤونها تدخلاً أدى بحكومتها إلى أن تصير فى أيدى الأجانب ، كانا قد انتهيا على طول الأيام بأن يجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حى مهما يقل القائلون فى تعوده الطاعة والخضوع من أجيال » .

وأما ثانية العبارتين فهى ما كتبه من باريس سنت هيلير إلى قنصل فرنسا العام فى مصر فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨١ قال : « ليس من السهل علينا أن نقدر من هنا قوة هذه المطامح الشرعية ولا كيف يمكن إرضاؤها ، ولكن هذه المطامح حقيقية إلى أعظم حد ، ومبررة من بعض الوجوه إلى أعظم حد أيضاً ، فلا يمكن إهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير فى خنقها[1] »

من هاتين العبارتين يتبين لنا أنه كان فى مصر يومئذ حركة وطنية ، فليتدبر ذلك أيضاً من يريد أن يحكم على رجال ذلك العهد وفى مقدمتهم عرابى ، وليشفق على أنفسهم الذين يرمون عرابياً ورجاله بالفوضى والجهل والأنانية . ليشفق هؤلاء على أنفسهم فلن يجدر بهم أن يظلوا يجهلون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الزراية بهم والاستخفاف بعقولهم ، إذ ليس أدعى إلى الاستخفاف بعقل رجل من أن تراه يجهل أمراً من الأمور ثم إذا هو يدلى فيه برأى قاطع فى لهجة يتردد فى اتباعها الراسخون فى العلم ...

ما كان عرابى طائشاً ولا داعية فوضى ، ولكن كان زعيماً مخلصاً يعمل بوحى من وطنيته ويصيب ويخطئ كما يصيب الزعماء غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة ! والخطأ والصواب من خواص البشر ومردهما إلى العقل وسعته أو ضيقه ؛ أما الصدق والإخلاص وما إليهما من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون ، بل لا يصح أن تكون هذه أموراً يجوز فيها التفاوت إذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين

(١) المسألة المصرية تعريب البادي وبدران

(١) العبارتان منقولتان من مقدمة كتاب التاريخ المصرى بقلم الأستاذ عبد القادر حمزة

بطل وبطل ! وكيف يجوز فى عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق وإخلاص ونصف إخلاص ؟ إن هذه أمور جلالها وجمالها بل وجوهرها فى أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص ؛ وعلى الذين لا يزالون يخاصمون عرابياً أن يأتوا بدليل واحد على كذبه أو مروقه. أما الخطأ والصواب فليقولوا فيهما ما شاءوا وبيننا وبينهم حوادث هذه الثورة الوطنية على قدر ما وصل إلينا منها ترينا مبلغ ما فى مزاعمهم هم من خطأ أو صواب

زارمستر بلنت قبل سفره إلى انجلترة عرابياً فى وزارة الحربية زيارة وداع ، ويجدر بنا أن نثبت هنا بعض ما كتبه ماليت عن عرابى فى هذه الزيارة قال : « تناقشنا فى كل الموضوعات التى كانت محل الكلام فى الدوائر الوطنية بما فيها من مشروعات للأصلاح وأمان ومخاوف فى الداخل والخارج ، وكانت بضعة الأسابيع التى قضاها عرابى فى مركزه الجديد قد أنضجته وقوته ؛ فناقشنى فى كل الموضوعات برصانة واعتدال عظيمين سواء فى التفكير أو فى اللهجة ! وقد أكد لى أنه هو وزملاؤه الوزراء يرغبون كثيراً فى أن يصلوا إلى تفاهم ودي مع الحكومة البريطانية فى كل المسائل التى يختلفون فيها مع الوكالة البريطانية فى القاهرة، وطلب إلى أن أبلغ رسالته هذه بصفة رسمية إلى غلادستون ! وقد شكا شكوى مرة من كلفن ومالية اللذين ظهر مسلكهما العدائى من الخطة التى جريا عليها فيما يختص بتشويه سمعة الوطنيين فى الصحف البريطانية وقال لى : « إن السلام لا يمكن أن يوطد فى القاهرة ما بقى هذان ، وما بقيت علاقتنا مقصورة عليهما ، فإننا نعرف أنهما يعملان لإيذائنا سراً إن لم يكن جهراً، وسنقف بمعزل عنهما جميعاً ، ولكننا لا نريد أن نختلف مع انجلترة كرامة لها . دع المستر غلادستون يرسل لنا أياً كان خلافهما لنتفاهم معه ونحن نستقبله بأذرع مفتوحة[1] »

هذا هو جانب من حديث عرابى مع بلنت نضعه تحت أعين الذين اتهموه بالنزق وعدم التبصر فى عواقب الأمور ليقولوا لنا: هل فيه كلمة واحدة فى غير موضعها ؟ هل يتهدد فيه عرابى الانجليز، ويتوعد كما كان حرياً أن يفعل لو كان كما وصفه أعداؤه؟ إنه يشكو من كلفن ومالية ويطلب غيرهما حتى يتسنى لمصر أن تتفاهم مع انجلترة وإنك لتراه بذلك يلقى تبعة اضطراب السياسة الانجليزية على كاهل هذين الرجلين فيرمى الإنجليز جميعاً رمية ماهرة كيسة فى شخصهما، فهو يعلم أنهما يمثلان نيات حكومتهما، ثم هو يفتح الباب بذلك للتفاهم فلا يدع فى مسلكه مجالاً لأعدائه ؛ كل ذلك دون أن يفرط فى حقوق بلاده أو يشترى بها ثمناً قليلاً وهو الذى جعل خصومه الخيانة فى أوائل ما اتهموه به . « يتبع » العفيف

(١) التاريخ السرى ترجمة البلاغ